مقدمة

بين عقد الحضارة ... والهام التاريخ !

تبدو لى حركة التاريخ العام وضمنه التاريخ الثقافى اقرب الى التقدم منها الى أى مفهوم آخر اذا فهمنا معنى التقدم فى مجاله الواسع الذى يسمح بالاضطراد الزمانى، والمكانى ولم نحصره فى حلقة ضيقة أو تجربة تاريخية واحدة "دولة / حضارة" فما انهزم التقدم مرة لدى أمة الا وكان ينتصر فى أخرى معاصرة تجاورها فى المكان، أو لاحقة تتلوها فى الزمان.

وفى هذا السياق يمكن لنا مد عمل هذا المفهوم ــ ان صح ــ الى أفكار وظواهر فرعية شتى تندرج فى اطار التاريخ الثقافى خصوصا والعام طبعا، وضمنها تأتى العلاقة بين الاسلام والغرب والتى لا تعدو كونها علاقة تثاقف مزدوجة الأوجة والسياق تتطور نحو الأرقى فى خط طويل صاعد لم يتوقف رغم بعض الانقطاعات ورغم كل ما يثار الآن من هواجس تغذى العداء والتناقض. وفى هذا الاطار ــ التقدمى الصاعد ــ ثمة عوامل جذب وتعاون، وثمة عوامل قطيعة وتنافر، غير أن عوامل الجذب فى كل مرحلة تاريخية تبدو أعمق مما كانت فى سابقتها، كما أن عوامل القطيعة والتنافر تبدو فى كل مرحلة من المراحل أوهى وأبسط من سابقتها وهذا هو معنى التقدم الصاعد فى هذه العلاقة.

ولا يتنافى مع هذا الفهم اعترافنا بوجود لحظات تأزم تبدو صدامية على نحو يفوق السياق التاريخى الممتد فيما قبلها على منوال ما كان مثلا ابان الحروب الصليبية، أو الهجمة الاستعمارية، وأخيرا فوبيا صدام الحضارات بعد أحداث ١١ سبتمبر، فما يحفظ لفهمنا التقدمى صدقيته هو أن كلا من هذة اللحظات تبدو أقل تعقيدا من سالفتها وليس بالضرورة من السياق الطبيعى السابق عليها، أى أن كل منها تبدو ــ كعقدة ــ أقل عمقا وتعقيدا من العقدة السابقة عليها رغم كونها أكثر تعقيدا من السياق الطبيعى الذى نشأت فيه، اذ يمكن الكشف عن نزعة تبسيطية فى جوهرها تمتد بين العقد الثلاث المتوالية تاريخيا؛

فمثلا تتضمن العقدة الأولى الممتدة فى لحظة الحروب الصليبية مزيجا من التناقض الدينى والسياسى والاقتصادى، اذ هى تنطلق باسم الصليب نحو أرض الهلال ولو على المستوى التبريرى، كما أنها تتضمن وبالأساس أهدافا عملية سياسية من قبيل السيطرة والتحكم وبناء المجد للعروش الأوربية الحاكمة وخاصة فى الممالك الصاعدة آنذاك، اضافة الى الهدف الاقتصادى حيث الطمع فى الموارد العربية وخاصة القدس أو أورشليم التى ذاع عنها فى أوربا كونها الأرض التى تفيض عسلا ولبنا فضلا عن كونها الأرض المقدسة.

بينما تتضمن العقدة الثانية الممتدة فى لحظة الهجمة الاستعمارية تعقيدا أقل اذ تنطوى فقط على تناقض ثنائى سياسى ــ اقتصادى، فهى تأتى فى سياق تاريخى أوربى تجاوز مركزية الدين الذى بقى حبيس الكنيسة وصدور المتدينين يثير الأشواق ويحرك المشاعر دون أن يحفز السياسات أو يوجه الجيوش، الى مركزية الدولة القومية التى تحفز هذه وتوجه تلك، بل صار يناقض الدين على مستوى الوعى الفلسفى وخاصة فى مرحلة الوضعية بشتى تياراتها التى ان لم ترفض الدين نهائيا، كمكون ميتافيزيقى، فانها على الأقل تزيحه عن مركز وعيها، بينما ظل الدافعين السياسى والاقتصادى مهيمنين حيث الطموح الى السيطرة والازدهار محركين للظاهرة الاستعمارية التى تغطت بأردية كثيفة فكرية وأخلاقية دارت جميعها حول أفكار المركزية الغربية ذات الطبيعة العنصرية الاستعلائية كرسالة الرجل الأبيض فى مدينة العالم.

وأما اللحظة الثالثة "فوبيا صدام الحضارات" التى نعيشها فكرا منذ العقد ونصف العقد، ونعانيها واقعا منذ أحداث ١١ سبتمبر فتجسد التناقض الثنائى نفسه ولكن فى مجال أضيق، فهى لا تأخذ الدين، حقيقة، على محمل الصدق وان تدثرت بغطاءه أو رأت فى ظواهره السياسية تجليات يمكن توظيفها لها قابلية الحضور ونجاعة التأثير فى تحقيق هدفها الحقيقى السياسى / الاستيراتيجى فى تكتيل الغرب خلف الولايات المتحدة والتى تضطلع مراكز التفكير الاستيراتيجى لديها، وكذلك مثقفوها العضويون أمثال دانيال بابيس، وروبرت كاجان، ووليم كريستول، وفوكوياما فضلا عن هانتنجتون، بمهمة البحث فى كيفية اغتنام الحدث الكارثى فى اعادة صياغة النظام العالمى وصبه فى هياكل جديدة قانونية وسياسية تعكس التفوق الاستيراتيجى الأمريكى، وتضمن اطالة عمره الى قرن

جديد، وهو ما يعنى أن جوهر العقدة فى هذه اللحظة ليس دينيا سياسيا اقتصاديا كما كان فى الحروب الصليبية، كما انه لم يعد غربيا مع العالم كله تقريبا كما كان ابان الهجمة الاستعمارية، وانما يصير امريكيا هذه المرة وحول الدافعين السياسى/ الاستيراتيجى، والاقتصادى وهو ما فطن اليه الضمير الأوروبي شرق الاطلسي، وأدركه البابا يوحنا علي رأس الفاتيكان والذى رفض بشجاعة وباسم الكاثوليكية العدوان على العراق بذريعة الحرب على الارهاب، وهو ما فعله أيضا اتحاد الكنائس الانجيلية بالولايات المتحدة نفسها ما أظهر الحرب كمحض اختيار امريكي لاغربي، قومي لاحضاري، نفعي لا قيمي، سياسي لاديني، وجعل عقدة الصدام فى هذة اللحظة الثالثة أخف وطأة من اللحظة الأولى فى تركيبها البنيوى، ومن الثانية فى مجالها الجغرافى وهو ما يؤكد على فهمنا العام المتفائل للحركة التاريخية والقائم على مفهوم التقدم بمعناه الواسع والانسانى.

ولكن كيف تسير العقد الحضارية نحو التبسيط داخل التاريخ الممتد، بينما يصير العالم فى الوقت نفسه الى التعقيد على مستوى البنية التاريخية حيث ترتبط درجة التقدم الحضارى، بمدى التركيب فى هذه البنية؟ بمعنى أوضح كيف تنتج بنية حضارية تزداد رقيا ومن ثم تركيبا فى التاريخ، عقد حضارية تزداد بساطة أو تقل تعقيدا فى التاريخ نفسه؟

ثمة تناقض ظاهرى يزول مع ادراكنا لطبيعة المنطق المزدوج للتقدم التاريخى؛

فهو من ناحية يسير الى تعقيد على مستوى البنية نتيجة لدوافع معروفة وموضوعية من قبيل الثورات المعرفية المتوالية، والموجات الديمقراطية المتنامية، فهذان المعلمان "العلم والحرية" هما صانعا العالم الحديث فى كتله التاريخية، وأنماطه الانتاجية، وطبقاته الاجتماعية، وهياكله السياسية، وحتى نشاطاته وانشغالاته الفكرية / الفلسفية. فجميعها فى تداخلها وتكاملها هى ما تحرك جدلية التقدم والتخلف اذ تمثل الركائز الصانعة لعالمنا الحديث، وهى تزداد تعقيدا كلما ابتعدت عن تلك الركائز التقليدية التى صنعت العوالم القديمة كالعقيدة الدينية، والانتماء العرقى، والتكوين البيولوجى كالقوة البدنية والمواصفات الجسمانية، أو حتى على صعيد البيئة الطبيعية كالمناخ.

وهو من ناحية أخرى يصير الى تبسيط على مستوى الأهداف التاريخية التى تثير التناقض والصراع بين الجماعات البشرية وهو تبسيط ناجم عن التغير نفسه فى ركائز صناعة العالم أو فى البنية التاريخية، اذ مع الانتقال من ركائز أولية فطرية الى حديثة، يتم الانتقال تدريجيا على صعيد الصراع التاريخى من أهداف مثالية ذات طابع اطلاقى، وجوهر ميتافيزيقى كالانتصار لله، أو إعلاء شأن الجماعة الانسانية "التى قد تكون قبيلة"، أو تحقيق المجد للأسرة الحاكمة المفوضة بالحق الالهى المقدس، الى أهداف عملية سياسية واقتصادية واستيراتيجية ذات طابع نسبى اذ تقوم على تبادل أو حتى احتكار المصالح والمنافع ومن ثم يمكن التفاوض حولها والمساومة عليها والوصول الى حلول وسط بشأنها فهذه الحلول هى ما تجعل العقدة الحضارية الدافعة الى الصدام أكثر بساطة وأقل تعقيدا فى كل لحظة عنها فى اللحظة السابقة، فالبساطة هذه تكاد تكون المعادل الموضوعى لمدى تعقد التركيب التاريخى الذى تسقط بتزايده مركزية الانتماءات الأولية للدين والعرق والطائفة والتى لا يمكن التفاوض بشأنها أو المساومة حولها أو بصددها دونما أحداث شروخ فى مكونات الهوية، أو جرح للمشاعر الدينية، أو اهانة للكرامة العائلية النابعة من الدم أو حتى من العناية الالهية، بينما تنمو فى المقابل مركزية الانتماءات الحديثة للطبقة الاجتماعية والحزب السياسى، وللهويات الواسعة كالوطن والأمة والانسانية مما يزيد من مساحة التوافق اذ يزيل بعض أعقد أسباب التناقض، ويبقى بعضها الآخر قابل للحلول الوسط اذ صارت تدور حول الأهداف العملية والنسبية السياسية والاقتصادية.

وهنا يمكننا استلهام أو استشفاف جوهرا للتقدم الأخلاقى فى التاريخ باعتباره رفض التعصب والعنصرية والإيمان بالحرية والتعددية، ولكن الإشكالية الكبرى تثور مع إدراكنا لحقيقة أن الأخلاق لا تحقق الأهداف التاريخية وحدها وإنما تحتاج إلى من يؤمن بها أو حتى يتعصب لها، وهى الإشكالية التى لم ينج منها الغرب وكذلك العالم الاسلامى فى العصر الحديث فكانت الدافع الرئيسى إلى ما سيطر على الطرفين من هواجس متبادلة يكشف عنها العقل الغربى الآن فى نظرية "صدام الحضارات" بعد أن كان العقل العربى قد كشف عنها فى نظرية "المؤامرة" إذ النظريتين، على الأرجح، ليستا الا عقدتين حضاريتين تعبران عن نوع من التعصب للذات / الهوية وان اختلفت ركائزه ومنطلقاته على الجانبين؛

فالتعصب الغربى للهوية يأتى عبورا على ركيزة "الحرية" التى أعلنها العقل الغربى وفهمها ومارسها على انها "حريته هو" التى لا تتوقف عند حرية الآخر خارجة ولا تكترث غالبا بالهاماته ورموزه ومن ثم فقد وقع فى مأزق التناقض بين الحرية "حريته" وبين التعصب لها على حساب الآخر الذى أضطر أحيانا إلى "قمعه". وقد يكون مفهوما أن يتغنى العقل الغربى بفضيلة "الحرية" بمعناها الشامل الذى أثمرته تجربة الحداثة فى القرون الثلاث الأخيرة على المستوى الوجودى، أى بناء الذات الحديثة القائمة على الفردانية، والمستوى السياسى حيث تنظيم المجتمع على أساس الديمقراطية الليبرالية، واستفادت منه فى انجاز الحضور الغربى الطاغ فى العالم. ولكن غير المفهوم هو أن ينادى بها كمرجعية تاريخية كاملة بحيث تبدو وحدها هى الفكرة المحركة للتاريخ وكأن الذكاء التاريخى قد ولد منها وتوقف عندها. وحتى لا يشعر بالعار يلطخ ماضيه حسب المعيار الذى وضعه هو فإنه يلجأ إلى ربط هذا الماضى بها باعتبارها "جوهره السرمدى" بل هويته الأولى، وهنا يبدأ التعصب وتنفجر نزعة "التمركز حول الذات" التى دفعت به عند محاولة تبريرها إلى التعامل مع التاريخ بآلية إختزالية تكفل له إثبات رقيه وطهارته المطلقين منذ بداية تاريخه وذلك عندما إنطلق من صورته الأخيرة "الراهنة" ليبنى تاريخا غربيا متجانسا ومتواصلا منذ ما يعتبره "المعجزة اليونانية" وحتى الآن وهو ما قاده فى النهاية الى الوقوع فى فخ نظرية الصدام تحت ضغط وتأثير الآليه المعرفية نفسها وما تتسم به من انتقائية وتبسيط مشوهين بهدف الحفاظ على وحدة الغرب وتجانسه فى المستقبل وفى ظل لحظة تاريخيه إتسمت بالميوعة الاستيراتيجيه أعقاب تداعى منظومة تحالفات الحرب الباردة، ومن ثم فإنه يمارس تعصبه "لهويته" هو كما يتصورها أو يرجوها أو حتى يدعيها.

وفى المقابل يتبدى التعصب العربى على نحو مباشر للهوية باعتبارها "أصالة السلف" حيث تعيش الحضارة العربية اشكالية الخوف من العالم الحديث منذ تفتق وعيها به وما أدى إليه ذلك الخوف من طرح متوتر دائما لطبيعة العلاقة مع منتجيها اى الغرب، وهو التوتر الذى قاد الى رفضها صراحة وبشدة من قبل التيار السلفى خشية تأثيرها على الأصالة العربية الإسلامية التى نظر اليها هذا التيار وكأنها " فوق تاريخيه". وقد أدى هذا النمط من التعصب للهوية إلى الآلية الإختزالية نفسها فى التعامل مع التاريخ عندما قام بتثبيته عند لحظة بناء

هذه الهوية فى الماضى لينطلق منها إلى رفض كل ما بعدها، مثلما كان الحاضر قد أصبح لدى الغرب هو نقطة انطلاق تاريخه فى اتجاه الماضى حيث "نزعة التمركز" والى المستقبل "نظرية الصدام" وكلاهما نمط من التعصب للذات وإن إختلف مضمونه، ومن الرؤية الإختزالية للتاريخ وإن تباينت منطلقاتها. على أنه وبرغم التشابه القائم بين النظريتين فى الركائز والمنطلقات، فإن ثمة اختلافاً جوهرياً بينهما تصنعه أبعاد ثلاثة أساسية تمنح المؤامرة قدرا أكبر من المشروعية، والصدام درجة أكبر من الخطورة؛

اولها: يتعلق بجوهر "العقدة" التى تصدر عنه كلتاهما حيث نظرية الصدام تحركها عقدة التفوق الغربى والرغبة العارمة فى تكريسه ومن ثم الحذر الشديد ازاء كل ما يهدده والاندفاع إلى التحذير منه إذ يمكن الإدعاء بأنها ليست بعيدة عن صيحات التحذير التى أطلقها بعض فلاسفة الغرب المحدثين من الاضمحلال والأفول والسقوط وجميعها تستلهم فكرة "النهاية" نهاية التفوق طبعا وليس نهاية الوجود، وإن بدت عليها بقدر غير مسبوق فى هذه الأفكار جميعا، ملامح الدعائية والنفعية ربما لأنها ناشدت الوجود الإستيراتيجى للغرب مع ما لهذا المستوى من قابلية أكبر للتأثير والتأثر ومن ثم قدرة أعلى على التحول بالإنكماش أو التمدد تفوق كثيرا المستوى الحضارى الثقافى الأعمق تكوينا والأكثر إستقرارا.

وعلى العكس فإن نظرية المؤامرة تصدر عن عقدة الخوف والاضطهاد لدى الجماعة العربية التى وجدت نفسها فى اسار عالم حديث لا تستطيع أن تفرض نفسها عليه، ولا تستطيع فى الوقت نفسه الإفلات منه لأنها محاطة به ومن ثم صارت تحركها مجرد دوافع الإستمرار فيه وليس التفوق عليه والحصول على الأمن فى جنباته ولو بالتخفى عن الآخر القوى أو حتى القطيعة معه.

وثانيها: يتمثل فى العمق التاريخى لكلتيهما، أى بطول المدى التاريخى من ناحية وحضور الخبرة التاريخية من ناحية أخرى وهنا تتفوق نظرية المؤامرة على نظرية الصدام حيث تمتد بطول العصر الحديث تقريبا مستبطنة لهواجس الحضارة العربية ازاء تقاليده وأبنيته الجديدة، ومستحضرة لأكثر من خبرة تاريخية سلبية وقعت فى اطاره على رأسها خبرتان أساسيتان تمثلان قمة تناقضات الغرب الواقعية مع تقاليده الحديثة "الكلاسيكية" فى لحظتين مهمتين؛

الأولى بدرجة الخطيئة وهى اللحظة التى شهدت واقعة استعمارة لشرقنا العربى الإسلامى بحجة التبشير بالمدنية وفى الحقيقة تعصبا منه لـــهذه المدنيـــة وتكريسا لتفوقها.

والثانية بدرجة الجريمة اذ منح اليهود وطنا فى فلسطين هو وطننا سواء بالوعد البريطانى أو بالدعم الأمريكى متعاميا عن تقليد معرفى مهم لديه ينتصر للحقيقة التاريخية ضد الأسطورة أيا كان مصدرهـــا دينيـــا أو ســـحريا، وأيضا عن تقليد سياسى أهم لا يزال يمارس العماء فى مواجهته وهـــو حق الشعوب فى تقرير مصائرها ومن ثم إقامة دولها على أراضيها أيـــا كانت ثقافاتها أو أديانها.

وعلى العكس يقصر مدى نظرية الصدام إلى نحو العقد منذ طرحها هانتينجتون صريحة وواضحة ونفعيه كما تكاد تفتقد لأى خبرة تاريخية حقيقة حيث أغلـــب الخبرات الجزئية والمحدودة "قياســـا إلـــى الخـــبرتين الكـــبرتين الإســـتعمار والصهيونية" التى حاول مروجوها نسبتها إليها مثل أحداث سبتمبر أو الـــهجوم على بعض السفارات الأمريكية فى العالم العربى وإفريقيا فى سنوات التسعينات جاءت تاليه لطرحها ومن ثم عملت كمبرر لها بأكثر مما كانت صانعة لخيوطها وإن أمكن إرجاعها إلى القرن الثامن عشر الذى شهد بزوغ ونضـــوج نزعـــة المركزية الغربية التى تبدو كجذر تاريخى لها.

أما ثالثها: فيتعلق بحاملها الثقافى والذى يتأسس لدى نظرية المؤامـــرة علـــى التيار السلفى الأكثر انغلاقا فى الثقافه العربية والذى يواجه بتحفظ كبير من قبل التيار التوفيقى العريض الذى تدعيه معظم التجارب والبناءات السياسية العربيـــة فى القرن العشرين، وبرفض قاطع من رافد نحيـــف هـــو البـــاقى مـــن تيـــار المعاصرة الذى كان متدفقا أوائل القرن الماضى الأمر الذى يجعل من ذهنيـــة المؤامرة فى الفضاء العربى أقرب إلى كونها "حالة وجدانية" أو "نفسية" منـــها إلى موقف إستراتيجى واع.

وأما نظرية الصدام فيتأســـس حاملـــها علـــى خليـــط مـــن رؤى لمؤسســـات استيراتيجية، وإدعاءات تروجها ميديا اعلامية واسعة الانتشار بالغـــة التـــأثير تنزع إلى الإختزال والتعميم لتبرير الإتهام واثبات الإدانة ولاشك ان انصارهـــا لايمثلون العقل الغربى كله لا فى دوائرة النزيهة سياسيا أو المنفتحة ثقافيـــا ولا

حتى يتطابقون تماما مع التيار العنصرى القائم على نزعة التمركز والذى كان قد أسهم فى حفزهم إلى فكرة الصدام بإلهام افكارة السابقة عن التفوق الغربي وصيحات تحذيرة من احتمالات زوال هذا التفوق، ولكنهم فى الوقت نفسه يصنعون ما هو أقرب إلى "مزاج إستيراتيجى" واع بأهدافه وأقدر على تحقيقها من مثيله الحامل لنظرية المؤامرة مستفيدا أولا من قوة حضور الغرب عموما فى عالمنا المعاصر وثانيا من موقعه المتقدم والمؤثر فى تيار التمركز داخل الثقافة الغربية، بعكس التيار السلفى العربى الذى يعانى من ضعف الحضور العربى فى العالم، وضعف التمثيل فى الثقافة العربية "الرسمية" نظرا لوقوعه أسفل التيار العريض الواسع فيها وهو التيار التوفيقى وهنا مكمن الخطر الحقيقى إذ على العكس من الأخير الذى لا يملك الا حرية تصور العالم فإن الأول يملك حرية تصوره، وتصنيعه إستيراتيجيا فى الوقت نفسه.

وبرغم الإختلافات الأساسية الثلاث التى يمكن رصدها أو تأملها سواء فى جوهر "العقدة الحضارية" التى تصدر عنه النظريتان، أو فى العمق التاريخى وكذلك فى الحامل الثقافى لهما، فان كلتيهما وإلى حد بعيد تبقى كاشفة عن صراع الرؤى بين الطرفين العربى والغربى وإدراك كل منهما للآخر، الأمر الذى يتطلب وقفه تأمل لكلتيهما، نظرية "المؤامرة" كنتيجة منطقية لعمقها التاريخى، وتجذرها فى الثقافة السياسية العربية، ونظرية "صدام الحضارات" لأنها فى تجليها الراهن تمثل تصورا استراتيجيا تصادميا كاملا لدى الغرب مع العالم خارجه والإسلام فى القلب منه منذ تسعينات القرن العشرين وضعته أحداث ١١ سبتمبر الكارثيه فى قلب الجدل الفكرى والسياسى العالمى مجددا بعد أن كان قد خفت بريقه قبلها ولهذا فكلتيهما تستحق التوقف عندها وعبر هذه المستويات الثلاث الأساسية.

والله الموفق